



بينما ينشغل العالم بما يبدو تنافساً روسياً-إيرانياً على احتكار السيطرة على بشار، أو استبعاده بشكل مفضوح، لا تبدو العصابة الأسدية مكترثة، ولا تبدي أي تذمر ولو على سبيل التخفيف من وقع الإهانات. إذعان العصابة قد يفسّر بوضعها تحت الوصاية المزدوجة، وتجريدها من كافة أدوات القرار، فضلاً عن أنها الآن لا تستطيع ممانعة حليفين من هذا العيار، أو أيًّا منهما بمفرده.

قد يفسّر التصاغر الأسدوي أيضاً بمنطق القوة الذي لا تفهم العصابة سواه، ومن ضمنه تحفظ باستقوائهما على السوريين، في حين تكون أمام الخارج في موضع مشابه لأولئك الذين تتولى سحقهم. لكن تجريد العصابة هكذا، مهما بلغ انحطاطها الأخلاقي ووحشيتها وعمالتها، ربما لا يكفي لسبر أغوارها. على الأقل هناك معطيات تدعى تطلعها إلى الخروج من ورطتها الحالية، وبعض ما نراه من مظاهر الضعف قد يراه قادة العصابة نوعاً من المرونة المؤقتة ليس إلا، مع تعوييلهم على ما يعتبرونه حنكة أثبتت نجاحها حتى الآن.

على سبيل المثال، لم يأتِ الوجود الروسي المباشر إنقاذاً عسكرياً فحسب بعد فشل الميليشيات الشيعية، فمن وجهة نظر العصابة أتى كخلاص من السيطرة الإيرانية المطلقة. وإذا حُمِّل التدخل الروسي تطلعات العديد من القوى الدولية والإقليمية، بعضها يتعلّق بإخراج إيران وبعضها الآخر يتعلّق بتأهيل العصابة الحاكمة لتصبح نظاماً، فإن عقل العصابة يعمل على بقاء الوصاية المزدوجة واللعب في المساحة المتاحة بين طرفيها. بشار ليس روسياً ولا إيرانياً ولا سورياً بالطبع، بخلاف الأحكام أو التمنيات التي تُطلق هنا وهناك، هو ينتمي لكل ما يبيه في السلطة سواءً كان حلفاً أو مجموعة من التناقضات والتعقيبات، ولا يمانع في أن يكون ذلك نوعاً من عدم الاستقرار طويلاً الأمد.

يرتكز تفكير العصابة على أنها فعلت بالسوريين الأكثر وحشية ما لا يمكن لعاقل تخيله، ورغم ذلك حظيت بمباركة دولية لبعضها. هي إذًا مطلوبة بما هي عليه، ويصعب العثور على بديل عنها يملك مواصفاتها أو مواصفات أدنى. من وجهة النظر هذه، ذلك يعني أن قرار التغيير لا تمتلكه موسكو أو طهران "أو كل منهما على انفراد" وحدهما، فهناك قوى غريبة لن تفرط بالأزمة الأسدية إذا أدى التفريط بها إلى تفكك البنية الأسدية بمجملها كما حصل للتركيبة الصدامية أو القذافية. بخلاف ما

نظن، لا يعتبر الأسديون أنفسهم في مأزق، بقدر ما يرون المجتمع الدولي في مأزق جراء الإصرار على بقائهم والخسارة المتعمدة لأي خيار آخر، وعلى المجتمع الدولي تحمل أعباء تلك النتيجة رغمًا عن موسكو وطهران إذا اقتضت الضرورة.

يرى بشار "بوصفه وريث الأسدية" نفسه قد التقط ما تريده حكومات غربية، تحديداً في لعبة الحرب على الإرهاب، وهو بذلك شريك لها حتى إذا أنكرت الشراكة أو تحاشت الإعلان عنها. أبعد من ذلك، إذا كانت الحكومات الغربية تحاول تلویث سمعتها مباشرة برعاية الأسدية بهذه مصلحة مشتركة، لأن شراكةً أوسع لم تكن يوماً ضمن اهتمامات الأخيرة بما ترتبه الشراكة العلنية من التزامات الحد الأدنى في الجانب السياسي. لنتذكر أن الأسدية حالت دون تطوير الشراكة مع أوروبا في أكثر من مناسبة سابقاً، وعرقلت تنفيذ العديد من المشاريع والالتزامات الأوروبية في لبنان أيام الوصاية عليه.

نحن، عندما نفكر ضمن منطق السياسة، نرى مأزق العصابة بأكثر مما تراه. فتدمير البلد لا يعنيها حفاظاً سوى من زاوية مكاسب إعادة إعماره ثانية، أي عبر سرقة نسبة ضخمة من المساعدات التي قد تأتي لإعادة الإعمار. وإذا كانت المساعدات مشروطة بإشراف الجهات المانحة فستفرضها العصابة بذرية الاستقلالية والسيادة، وستفضّلبقاء الخراب والدمار حتى في البنية التحتية الضرورية إذا لم تقبض الثمن. كذلك هو الأمر في ما يخص عودة اللاجئين، فالعلين أولًا على الشبان الذين هربوا من الالتحاق بقواتها، وفي المرتبة الثانية تأتي ضرورة استعادة بعض الكفاءات والمهارات الضرورية لمزرعة العبيد.

الحديث عن خسائر سورية، في ما يخص الإبادة والتدمير والتهجير، لا يمس الزمرة المتسلطة، وكي يمسها ينبغي أصلاً أن تتحلى بقليل من الانتقام للبلد. كما شاهدنا، وشاهد العالم كله، كانت المقتلة السورية فرصة لتنكّب والإثارة لأفراد العصابة من أعلى الهرم لأسفه، ومفهوم الاستباحة الذي شهدناه كان استئنافاً لمسيرة عقود من النهب المنهجي والإفقار، فلم يكن على سبيل الانتقام من الثورة فحسب. فائض التدمير الذي حدث كان "خارج دائرة الانتقام" يصدر عن أولئك الذين يعرفون جيداً أنهم لن يعيدوا البناء على حساب مكاسبهم القديمة والمستقبلية، ولأسباب غير حربية إطلاقاً دُمرت مناطق حيوية من أجل الاستيلاء عليها واستثمارها تجاريأً.

ما نعرفه عن العصابات أن لا شيء يضغط عليها، سوى المسدس عندما يوضع بجدية على صدغ أحد قادتها الكبار، وربما يراوغ القادة حتى لحظة تلقي الرصاصه فعلاً. لذا لن يكون هناك تعديل في سلوك العصابة الأسدية، وإذا كان عامل الوقت ضاغطاً على العديد من القوى، بما فيها الحليفان الروسي والإيراني، فهو لا يضغط عليها إطلاقاً، ولا ترى أنها أمام أي استحقاق ملح. على العكس من ذلك، كانت الأسدية دائماً تلعب على استهلاك الوقت الذي لا يعني لها شيئاً بالمعنى الاستراتيجي بينما يمتلك قيمه بالنسبة للآخرين، وعندما يصرّ الناطقون باسمها أنهم لن يتغيروا وأن على الآخرين مراجعة حساباتهم بهذه الأقوال تُبني على خبرة طويلة سابقة في استنزاف الوقت.

قد يكون مثيراً للدهشة إذا قلنا ما نعرفه عن اعتقاد العصابة الأسدية أنها تمتلك ذكاء يفوق الجميع، وهذه الصورة لا تُسوق داخلياً فقط من أجل التغريب بقاعدة مغفلة. هو بالأحرى اعتقاد مبني على عقود من القدرة على البقاء، وعلى عقود من الوحشية والاستباحة، وعقود من الثبات ضمن عالم متغير. ما سبق كله يمنع العصابة الثقة في أنها ستتجاوز خطر الحلفاء الحاليين، بعد استخدامهم في التخلص من خطر السوريين. قد يصعب التكهن بمال منطقي لهذه الثقة المفرطة، على الأقل تلزمها معرفة أدقّ بكيفية تفكير المافيتين الحليفتين.

المصادر:

جريدة المدن